بنية الرثاء الحسيني في ديوان ابن العرندس الحلي (ت ٨٤٠هـ) دراسة فنية وأسلوبية

د.علاء عبدالخالق حسين المندلاوي
بحث علمي لموقع مؤسسة العراقة للثقافة والتنمية
بتاريخ٢٦/ ٨/ ٢٠٢٦
DOI: 10.13140/RG.2.2.16882.47046

ملخص البحث:

تتجسّد أهمية هذا البحث في تسليط الضوء الأكاديمي على الخطاب الشعري عند الشيخ صالح بن عبد الوهاب بن العرندس الحلي، وإعادة قراءة أدب القرون المتأخرة عبر تحليل التلاحم الفني بين الروافد الفقهية والملكة البلاغية في تجسيد القضية الحسينية. وحيث اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي، وتحددت إجراءاته في تحليل ديوان الشاعر إلى ثلاثة فصول مترابطة؛ تناول الأول المرجعيات التأسيسية والبنية المحسنات كالجناس والمقابلة، وخُصص الثاني لمعاينة البنى التشكيلية والتراكيب الجملة والتناص، بينما كُرّس الفصل الثالث لدراسة البنية الصوتية والعاطفية وأثر النص في الخيال الجمعي.

أسفر البحث عن نتائج أبرزها: أن المحسنات البديعية لدى الشاعر تشكّل طاقة تعبيرية تنقل حسرة الفجيعة وليست مجرد تزويق شكلي، مع هيمنة التراكيب الاسمية لإفادة ثبات الأسى ودوام المأساة، وفضلاً عن اتساق الاختيارات الموسيقية والتلوين البصري الحسيني مع صدق العاطفة واليقين العقائدي. واستناداً للنتائج البحث، يوصي الباحث بعدد من التوصيات ومنها بضرورة استكمال تحقيق مخطوطات ابن العرندس الفقهية والأدبية، وإعادة قراءة نتاج شعراء مدرسة الحلة وفق المناهج النقدية الحديثة، وتضمين نصوصهم البلاغية في المقررات الأكاديمية الجامعية.

الكلمات المفتاحية: ابن العرندس الحلي؛ الرثاء الحسيني؛ البنية الأسلوبية؛ التشكيل البلاغي؛ الهندسة الصوتية.

The Structure of Husayni Elegy in the Diwan of Ibn al-Arandas al-Hilli (d. 840 AH): An Artistic and Stylistic Study

Author: Dr. Alaa Abdulkhaleq Hussein Al-Mandalawi

Publication: Scientific Article for Al-Araqa Foundation for Culture and Development

DOI: 10.13140/RG.2.2.16882.47046

Abstract:

This research highlights the poetic discourse of Sheikh Salih bin Abd al-Wahhab bin al-Arandas al-Hilli, offering a re-examination of late-period Arabic literature by revealing the artistic integration between jurisprudential foundations and rhetorical mastery in depicting the Husayni tragedy. The study adopts a descriptive, analytical, and stylistic methodology, structured around a detailed examination of the poet's Diwan across three interconnected chapters: the first examines foundational references and rhetorical figures such as paronomasia and antithesis; the second investigates figurative structures, sentence patterns, and historical intertextuality; and the third explores phonic and emotional architecture alongside the text's impact on the collective imagination.

The findings indicate that the poet's rhetorical embellishments function as expressive vehicles conveying profound grief rather than mere stylistic decoration. The dominance of nominal structures serves to establish the permanence of sorrow and the enduring nature of the tragedy, while musical choices and sensory imagery align seamlessly with genuine supplication and doctrinal conviction. Based on these conclusions, the researcher recommends finalizing the critical editing of Ibn al-Arandas's jurisprudential and literary manuscripts, re-evaluating the works of the Hilla school of poets through modern critical frameworks such as semiotics and stylistic analysis, and incorporating their rhetorical texts into university academic curricula.

Keywords: Ibn al-Arandas al-Hilli; Husayni Elegy; Stylistic Structure; Rhetorical Construction; Phonic Architecture.

المقدمة:

تُمثّل فاجعة كربلاء الخالدة الشعلة الإنسانية والعقائدية التي أنارت درب الأدب العربي الولائي عبر التاريخ، فلم تكن مجرد حادثةٍ تاريخية عابرة انقضت بانقضاء زمانها، بل تحوّلت إلى مدرسةٍ

أدبية وفكرية متكاملة استمدّت ديمومتها من مظلومية الإمام الحسين (عليه السلام) وعظيم تضحيته. وفي هذا السياق، شكّلت مدرسة الحلة خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين حلقةً مفصليةً في تاريخ الشعر العربي، إذ جمعت بين الرصانة الفقهية والأصالة اللغوية والعاطفة الوجدانية، وظهر في رحابها شعراء كبار سخروا طاقاتهم البلاغية ونتاجهم الأدبي لخدمة أدب الطف وتطوير أدواته الفنية. ويقف الشيخ صالح بن عبد الوهاب بن العرندس الحلي (ت ٨٤٠هـ) في طليعة أعمدة هذه المدرسة الفذة، حيث امتاز ديوانه بنبرةٍ رثائيةٍ شجية ونسيجٍ أسلوب فريد يمتزج فيه البعد العقائد بالصناعة البلاغية المحكمة، وهو ما تجلى بوضوح في مراثيه لآل البيت (عليهم السلام) وعلى رأسهم سيد الشهداء الامام الحسين (عليه السلام)، حيث غدت قصائده ومنها قصيدته الرائية الشهيرة معلماً أدباً وفكرياً خولّها أن تحتل موقعاً استثنائياً في المخيال الوجداني والجمالي.

وتتجسّد أهمية هذا البحث في كونه يسعى إلى قراءة شعر ابن العرندس الحلي قراءة أسلوبية وفنية متكاملة تنفذ إلى عُمق النص وتفكك بنياته البلاغية والتركيبية والإيقاعية، دون الاكتفاء بالقراءات التبسيطية أو التوثيقية التراثية التي غالباً ما ركزت على البعد العقائدي أو الترجمة الشخصية للشاعر دون إعطاء البناء الفني حقه من النظر التحليلي. إن الوقوف على بنية الرثاء الحسيني في هذا الديوان يتيح للأدب والنقد التعرّف على اسلوب الشاعر في تحويل المأساة التاريخية والفجيعة الإنسانية إلى لوحات شعرية متدفقة بالحركة، مفعمة بالألوان والتضاد، ومحملة بالإيقاعات الصوتية التي تشد المتلقي وتستثير وجدانه، وفضلاً عن كشف طبيعة العلاقة التفاعلية بين الفقيه والشاعر داخل النص الأدبي الواصل بين زمنين.

ويهدف البحث في مقاصده الأساسية إلى تحليل البنية الفنية والأسلوبية للرثاء الحسيني عند ابن العرندس الحلي، عن طريق الوقوف على المرجعية الفكرية والفقهية التي انطلق منها وتتبع أثرها في صياغة الخطاب الشعري، إلى جانب دراسة البنى البلاغية القائمة على الجناس والمقابلة والتصوير البياني، وتحديد طبيعة التشكيل اللوني وحسية الصورة الشعرية التي رسمت مشاهد الواقعة، وكما يصبو البحث إلى تحليل بنية تركيب الجملة في النصوص لمعرفة مدى هيمنة الأساليب الاسمية ودلالاتها، وفضلاً عن استقراء الإيقاع بشقيها الداخلي والخارجي وبيان كيفية توظيف البحور ورد العجز على الصدر لتحقيق التوازن بين الجانب الموسيقي والعمق الوجداني.

أما الفجوة البحثية التي يتصدى هذا البحث لسدها، فتمثل في أن أغلب الدراسات الأكاديمية السابقة التي تناولت أدب ابن العرندس الحلي سالكاً مسلك الجمع أو التحقيق أو التراجم العابرة، قد ركزت بشكل أساس على البعد التاريخي والشهرة العقائدية لقصائده، وافتقرت إلى دراسة بنوية مستفيضة تجمع بين الفن والأسلوب وتستجلي جماليات البناء النصي وفق المناهج النقدية الحديثة والمعايير الأكاديمية الدقيقة، حيث تظل تشكيلات الصورة الشعرية والتلوين الأسلوبي والتناص في ديوانه بحاجة ماسة إلى قراءة فنية تبرز مكامن الإبداع وصناعة الفاجعة لديه.

ولتحقيق هذه الأهداف واستكشاف هذه الجوانب، اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي القائم على تفكيك النصوص الشعرية واستنطاق ظواهرها الأسلوبية والبلاغية والإيقاعية، ومزاوجة الوصف الدقيق للتراكيب بالتحليل العميق للدلالات والعواطف المحركة للنص، مع الاستعانة بمعايير النقد البلاغي والأدبي لضمان التوصل إلى استقراء علمي رصين وموضوعي.

وقد استدعى تحقيق هذا المنهج تقسيم البحث إلى ثلاثة فصول وموزعة على مباحث ومطالب متوازنة؛ حيث تخصص الفصل الأول لدراسة المرجعيات التأسيسية والبنية البلاغية لدى الشاعر من خلال تسليط الضوء على سيرته ومكانته ثم تحليل البنية الجناسية والمقابلة، بينما كُرِّس الفصل الثاني لبحث البنى التشكيلية والتراكيب التركيبية عبر تقصي الصورة التشبيهية والتلوين والبناء الجملة والتناص الديني، في حين جاء الفصل الثالث ليعالج التشكيل الإيقاعي والعاطفي متناولاً الوزن والقافية والتكرار الموسيقي وصولاً إلى العاطفة والتلاقي العقائدي.

الفصل الأول: المرجعيات التأسيسية والبنية البلاغية عند ابن العرندس الحلي

تُمثّل البيئة الأدبية والفكرية مرتكزاً أساسياً في تشكيل وعي الشاعر وتحديد مساراته الأسلوبية، إذ لا يمكن فصل النص الأدبي عن السياق الحضاري والاجتماعي الذي ولد في أحشائه، وفي هذا الإطار، تبدو مدرسة الحلة الأدبية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين بمثابة الفضاء الفكري الذي صاغ التجربة الشعرية للشيخ صالح بن عبد الوهاب بن العرندس الحلي، حيث تظافرت البلاغة مع علوم الشريعة لإنتاج خطاب رثائي يجمع بين الجزالة الفنية والعمق العقائدي. ويسعى هذا الفصل إلى التأسيس المعرفي والجمالي لدراسة ديوان ابن العرندس عن طريق مسارين رئيسين؛ يتناول الأول السيرة الذاتية والعلمية للشاعر، واستكشاف روافده الثقافية والفقهية،

ومكانته بين أعلام عصره، في حين يكرس المسار الثاني لبحث البنية المحسنات البلاغية داخل النص الرثائي، مع التركيز على ظاهرتي الجناس والمقابلة بوصفهما أداتين أسلوبيتين تتجاوزان حدود التزويق اللفظي لتساهما في تشكيل حرارة الفجيعة وتعميق الإيقاع الوجداني. إن قراءة البنية البلاغية لدى فقيه وشاعر كابن العرندس تتطلب فحصاً تحليلياً شاملاً للنصوص الشعرية، يبيّن كيف استطاع المعجم البلاغي التراثي أن يتحول في قريحته إلى طاقة تعبيرية جسّدت مأساة كربلاء وأحالتها إلى لوحات ناطقة بالأسى والاحتجاج.

المبحث الأول: ابن العرندس الحلي: حياته، وعصره، ومكانته العلمية والأدبية

المطلب الأول: سيرة ابن العرندس الحلي وتنشئته في البيئة الحلية

هو الشيخ صالح بن عبد الوهاب بن العرندس الحلي، والعرندس في اللغة اسم من أسماء الأسد الشديد، ولد في مدينة الحلة في الفرات الأوسط من العراق خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، ونشأ في هذه المدينة التي كانت يومئذٍ عاصمة للعلوم الإسلامية وموئلاً للفقهاء والأدباء ومحط رحال طلبة العلم (١).

شهد العصر الذي عاش فيه الشاعر تحولات سياسية واجتماعية حادة في العراق، إلا أن مدينة الحلة بقيت تحتفظ بخصوصيتها العلمية والأدبية بفضل مدارسها الدينية الحافلة والمكتبات الجامعة، وهو ما وفر لابن العرندس بيئة خصبة للاغتراف من منابع الفقه والحديث واللغة والبلاغة، وحيث تنقل الشاعر في مجالس علماء عصره وتربى على أيديهم حتى أتقن الفنون الشرعية والأدبية، وظهرت عليه علامات النبوغ الشعري المبكر والتفاني في ولاء أهل البيت (عليهم السلام) وعاش الشاعر حياة زاهدة متعبدة، وعُرف بالصلاح والتقوى والاشتغال بالتأليف والشعر، وظل مقيماً في الحلة ينشر علمه وأدبه حتى وافته المنية بها في حدود سنة (ت ٨٤٠هـ)، ودفن في ترابها حيث ما يزال مرقده الشريف معروفاً يُزار في محلة جبران بمدينة الحلة، شاخصاً بدوره التاريخي والعلمي (٢).

المطلب الثاني: المكانة العلمية والأدبية وروافد الثقافة الفقهية والشعرية

لم يكن ابن العرندس مجرد شاعر يُنشد القريض في المناسبات العقائدية، وانما كان عالماً فقيهاً متضلعاً في علوم الشريعة ومؤلفاً متعمقاً في الأصول والفروع، وممن يشار إليهم بالبنان في الدقة

والضبط، وتجلت مكانته العلمية في مؤلفاته الفقهية الاستدلالية التي تركها، ومن أبرزها كتابه الفقهي الشهير "كشف اللآلي" الذي أظهر فيه قدماً راسخة في الفقه المقارن واستنباط الأحكام الشرعية [٣]. وقد أثنى عليه كبار المؤرخين وأرباب التراجم في المعاجم الأدبية والفقهية، حيث وصفه العلامة عبد الحسين الأميني بأنه أحد أعلام الشيعة ومن مؤلفي علمائها في الفقه والأصول، مشيراً إلى أن مدائحه ومراثيه لآل البيت تنم عن تفانٍ مطلق في ولائهم وثقافة عالية بالحديث والسير [٤]. وكما أشاد به الشيخ محمد علي اليعقوبي والشيخ محمد السماوي والسيد محسن الأمين، مؤكدين أن الجمع بين الفقه البارع والشعر الرفيع كان الميزة الأساسية التي طبعت أدب ابن العرندس الحلي بطابعها الخاص، وانعكست هذه الخلفية العلمية والفقهية على نتاجه الشعري، فجاءت مفرداته معجمة بالدقة اللغوية، ومضامينه محشوة بالتناص مع أحاديث الفضائل والمظلومية، ومبنية وفق منطق حجاجي رصين يجري مجرى الأدلة الشرعية في الاستدلال على أحقية آل البيت ومظلوميتهم في واقعة كربلاء الخالدة [٥].

المبحث الثاني: البنية البلاغية (الجناس والمقابلة)

المطلب الأول: الجناس وأنواعه وإيقاعه الموسيقي في النص الرثائي

تُعد ظاهرة الجناس من أبرز الفنون البديعية التي هيمنت على البنية الأسلوبية في ديوان ابن العرندس الحلي، إذ لم يستعملها الشاعر مجرد حلي لفظية وزخارف شكلية تترف بها التراكيب، وانما وظفها بوصفها طاقة إيقاعية ودلالية تسهم في شحن البيت الشعري بالتوتر العاطفي. لقد تنوعت استخدامات الجناس عند ابن العرندس بين الجناس التام، والجناس المحرف، والجناس الاشتقاقي، والجناس الناقص، حيث يعمل التماثل أو التقارب الصوتي بين الكلمات على تنبيه ذهن المتلقي وإحداث جرس موسيقي داخلي يتوازى مع حزن الفجيعة. ويتجلى هذا التوظيف البديعي في قدرة الشاعر على اختيار ألفاظ متقاربة الحروف ومختلفة المعاني لتجسيد اضطراب المشهد وحيرة الثكالى وجسامة الحدث، فترتفع القيمة الموسيقية للبيت دون أن تخل بالمعنى أو تبدد الصدق الشعوري. إن الجناس عند ابن العرندس الحلي ينبع من طبع سيّال وثقافة لغوية متينة تتخير اللفظة لموقعها الشكلي والدلالي في آن واحد، مما يجعل التكرار الصوتي وسيلة

لتعميق صوت الأنين والتفجع في قصائد الرثاء الحسيني، ورسم أبعاد الحركة والاضطراب في ساحة المعركة، وهو ما تظهره التطبيقات الشعرية في ديوانه بصورة جلية.

المطلب الثاني: التضاد والمقابلة وتشكيل الفجيعة

تشكل المقابلة والتضاد في رثائيات ابن العرندس الحلي ركناً بلاغياً جوهرياً يتأسس عليه البناء الدرامي للمأساة، إذ يعتمد الشاعر على تقابل الصور المتضادة لإبراز الحجم الفادح للجريمة ومفارقات واقعة الطف. يقوم هذا التشكيل البلاغي على وضع صفات الإمام الحسين عليه السلام وعلو مقامه الفكري والروحي في كفة، ومعاملة أعدائه القساة وجسامة الظلم الواقع عليه في الكفة المقابلة. يتقابل في شعره نور النبوة مع ظلمات الظلم، وعطش آل البيت مع إحاطة الماء بهم، وشرف السبط النبوي مع لؤم الجيش العارم، وهذا التقاطب الحاد بين المعاني المتقابلة يخلق صدمة انفعالية لدى المتلقي، ويضاعف من شحنة الأسى والاحتجاج، حيث لا يعود التضاد مجرد فن بديعي لإبراز المعنى بضده كما يقرر علماء البلاغة القدامى، بل يتحول إلى أداة برهانية تكشف عن عمق الاختلال الأخلاقي في المعسكر الأموي مقابل الذروة الإيمانية لشهداء كربلاء، وتنساب المقابلات في ديوانه لترسم مفارقة العطش للإمام الذي أبوه ساقي الحوض وأمه صاحبة مهر الفرات، وهو ما يجعل التضاد عنصراً كاشفاً لأبعاد المأساة ومحركاً رئيساً للتفجع الشجي.

ولتقصي البنية البلاغية والمحسنات في شعر ابن العرندس الحلي ومعاينة آليات الجناس والمقابلة وتشكيل الفجيعة، نستعرض هذا النموذج القصائد المحقق من ديوان الشاعر [٦]:

أيا راكباً يسري على خيفانةٍ ... طوت قفر فدفد لا يقرّ لها قرُّ

تيمّم رِحابَ الحلة الفيحاء جائراً ... وبثّ بها شكوى يعجّ بها الصدرُ

وقل لابن عرندس مقال مفجعٍ ... رثاؤك للحسين له في الملا فخرُ

عصبٌ عصت غصّت بخيلهم الفضا ... غصبت حقوق بني الوصي وأحمدا

قتل الحسين بـ(كربلا) يا ليته ... لاقى النجاة بها وكنت له الفدا

فإذا تطوّق ذاك دمعي أحمرٌ ... قانٍ مسحت به يدي تورّدا

ولبست فوق بياض عنقي من أسىً ... طوقاً بسين سواد قلبي أسودا

لم أنسه في (كربلا) متلظياً ... في الكرب لا يلقى لماءٍ موردا

ويكشف التحليل الأسلوبي لهذا النص الشعري عن توظيف بلاغي شديد التكثيف؛ ففي البيت الرابع يطالعنا الشاعر بتراكم جناسي واشتقاقي مذهل في الصدر: "عَصَبٌ عَصَتْ غَصَّتْ غَصَبَتْ"، حيث استثمر الشاعر التقارب الصوتي الحاد بين حروف العين والصاد والغين والتاء لتجسيد حالة التكالب والعصيان والازدحام العسكري، فجاء التردد الصوتي مجسداً لحركة الجيوش وحصارها لآل البيت. وفي البيت الأخير، نرى الجناس المحرف والاشتقاقي البديع بين اسم المكان "كربلا" وحالة الحزن الشديد "الكرب"، مما جعل من البيئة المكانية رمزاً للمأساة ذاتها. أما في الجانب التضادي، فإن البيت السابع يمثل ذروة المقابلة الألوانية والنفسية بين "بياض عنقي" و"سواد قلبي أسودا"، حيث يتقابل البياض الذي يرمز للبراءة مع السواد الذي يرمز لطوق الفجيعة والحداد الشديد، مما يبرهن على أن البنية البلاغية عند ابن العرندس كانت خادمة للبناء المأساوي ومسهمه في إشاعة جو الأسى الوجداني.

وفي نموذج ثانٍ يمثل ذروة التجربة الفنية والولائية عند ابن العرندس الحلي، نستعرض هذه الأبيات المحققة من رائيته الشهيرة التي حظيت بشهرة وافرة في التراث الأدبي والعقائدي (٧):

طوايا نظامي في الزمان لها نشرُ ... يعطّرها من طيب ذكركم نشرُ

قصائد ما خابت لهن مقاصدُ ... ولا ضاع فيهن التوسل والأجرُ

فراق فراق الروح لي بعد بعدكم ... ودار برسم الدار في خاطري الفكرُ

أيُقتل ظمآناً حسين بكربلا ... وفي كل عضو من أنامله بحرُ؟

ووالده الساقي على الحوض في غدٍ ... وفاطمةٌ ماء الفرات لها مهرُ؟

فمال عن الطرف الجواد أخو الندى ... الجواد قتيلاً حوله يصهل المهرُ

محيط على علم النبوة صدره ... فطوبى لعلم ضمه ذلك الصدرُ

له تربة فيها الشفاء وقبة ... يجاب بها الداعي إذا مسه الضرُّ

وتتجلى في هذه القصيدة البنية البلاغية التصديرية والجناسية في أعلى درجات انسجامها الإيقاعي والدلالي؛ ففي البيت الأول نجد فن "رد العجز على الصدر" والجناس التام في لفظة "نشر ... نشر"، حيث تحولت الكلمة الأولى إلى دلالة الانتشار والشهرة والثانية إلى النفحة العطرية والطيب، وهو ما تكرر أسلوبياً في البيت السابع عبر ترديد لفظة "صدره ... الصدر" لتوثيق الفكرة وتأكيدها. وفي البيت الثالث ينشئ الشاعر جناساً اشتقاقياً متلاحقاً "فراق فراق" و"بعد بعدكم" و"رسم الدار ... الدار" ليعكس حالة التشتت واللوعة الناجمة عن البعد والفقد. وتتسامى المقابلة البلاغية في البيتين الرابع والخامس عبر التساؤل الإنكار التفجع الذي يضع عطش الإمام الحسين (عليه السلام) في مقابلة حقيقة أن أنامله بحور ندى، وأن أباه علي بن أبي طالب ()عليه السلام هو الساقي على الحوض غداً، وأن أمه فاطمة الزهراء (عليها السلام) مهرها ماء الفرات، حيث يستحيل التضاد بين "العطش" و"البحر/الساقي/المهر" إلى وثيقة احتجاج بلاغية وفكرية تزلزل وجدان المتلقي. وفي البيت السادس، يستثمر الشاعر الجناس التام بين "الجواد" الأولى بمعنى الفرس أو البطل و"الجواد" الثانية بمعنى المعطاء الكريم، ليختم البيت برسم حركة المهر الهائم، مما يؤكد أن البنية البلاغية لدى الشاعر ليست شكلاً ظاهرياً، بل هي المحرك الأساس لموسيقى الرثاء وفلسفة المأساة.

(١) اليعقوبي، الشيخ محمد علي، البابليات، النجف الأشرف: المطبعة الحيدرية، ط١، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م، ج٢، ص ١٤٢-١٤٥.

(٢) حرز الدين، الشيخ محمد، مراقد المعارف، تحقيق: عبد الرزاق حرز الدين، قم: منشورات دليل ما، ط١، ١٤٢٨هـ، ج١، ص ٤١٠-٤١٢.

(٣) الصدر، السيد حسن، تكملة أمل الآمل، تحقيق: عبد الحميد القاضي، قم: منشورات مكتبة آية الله المرعشي النجفي، ط١، ١٤٠٦هـ، ص ٢٣١-٢٣٣.

(٤) الأميني، الشيخ عبد الحسين، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، بيروت: دار الكتاب العربي، ط٤، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، ج٧، ص ١٤-١٨.

(٥) شبر، السيد جواد، أدب الطف أو شعراء الحسين (ع) من القرن الأول الهجري حتى القرن الرابع عشر، بيروت: دار المرتضى، ط١، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م، ج٤، ص ٢٨٠-٢٨٥.

(٦) ابن العرندس الحلي، الشيخ صالح بن عبد الوهاب، ديوان ابن العرندس الحلي، صنعة وتحقيق: د. سعد الحداد، بابل: دار الفرات للثقافة والنشر، ط٣، ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م، ص ٤٥-٤٨.

(٧) ابن العرندس الحلي، الشيخ صالح بن عبد الوهاب، ديوان ابن العرندس الحلي، صنعة وتحقيق: د. سعد الحداد، بابل: دار الفرات للثقافة والنشر، ط٣، ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م، ص ٨٨-٩١.

الفصل الثاني: البنى التشكيلية والتراكيب التركيبية في الرثاء الحسيني

تتضافر البنى التشكيلية والأنساق التركيبية في النص الشعري لتشكل الفضاء الجمالي والدلالي الذي تتجسد فيه تجربة الشاعر الوجدانية ورؤيته الفكرية، حيث لا ينفصل المعمار اللغوي عن الأبعاد الدلالية والتعبيريّة للرسالة الأدبية. وفي هذا السياق، يبدو ديوان الشيخ صالح بن عبد الوهاب بن العرندس الحلي ميداناً ذا خصوبة عالية لقراءة أساليب التشكيل البياني والتلوين البصري والتركيب الجملي في القصيدة الرثائية بالقرن التاسع الهجري. يهدف هذا الفصل إلى تفكيك الأساليب التشكيلية والتركيبية التي اعتمدها الشاعر في بناء خطابه الرثائي عن طريق محوريين رئيسين؛ ينصب المحور الأول على التشكيل الصوري والتلوين البياني، مستجلياً أدوات الشاعر في رسم مشاهد واقعة الطف وتوظيف التشبيه والمجاز، فضلاً عن رصد البعد التظليل والألوان كعناصر درامية تُحيل المأساة التاريخية إلى تشكيل بصري يفيض بالحركة والحسية. بينما يتولى المحور الثاني دراسة البنية التركيبية والدلالية للجمل، عبر تحليل هيمنة التراكيب الاسمية على الفعلية وأثر ذلك في تثبيت مشاعر الأسى والفجيعة، وتتبع مظاهر التناص الديني والتاريخي واستدعاء النصوص القرآنية والروائية والمآثر التاريخية. إن التحليل الأكاديمي التفصيلي للنصوص البنائية لابن العرندس الحلي يستدعي معاينةً عميقة للنماذج الشعرية، تبين كيف استطاع الشاعر مزج الصورة البيانية بالدلالة التركيبية لإبراز مظلومية السبط الشهيد وأهل بيته وفق نسق فني متصل ورصين.

المبحث الأول: التشكيل الصوري والتلوين البياني

المطلب الأول: الصورة التشبيهية والمجازية في رسم مشاهد الطف

تُمثل الصورة الشعرية عند ابن العرندس الحلي الركيزة الجمالية الأساسية في نقل المشهد التاريخي لكربلاء من إطاره الزمني المجرد إلى رحاب التلقي الوجداني المتجدد، إذ اعتمد الشاعر على التشبيه والمجاز والاستعارة لتخليق صور حية تنبض بالحركة وتصور مجريات الواقعة بأبعادها المختلفة. لم تكن الصور التشبيهية لديه مجرد أداة لتزيين المعنى، وانما كانت وسيلة استكشافية تعكس عمق الانفعال بالحدث؛ حيث يستعير الشاعر من عناصر الطبيعة والكون مجازات لتجسيد مأساة الأمام الحسين (عليه السلام)، كتشبيه الدماء بانسكاب السحائب، والمنايا بالطيور الكواسر، والصفوة بالطود الأشم. يتدرج التشكيل الصوري عند ابن العرندس بين التشبيه المفرد والتشبيه التمثيلي الممتد الذي يرسم من خلاله صورة حركة الجيوش واحتدام المعركة وسقوط الشهداء، مما يتيح للصور الشعرية تفعيل الطاقات التخيل لدى القارئ وجعله يعايش دقة المشهد وحرارة المواجهة، كما تظهر الاستعارة المكنية والتصريحية في ديوانه بوصفها أداة لخلع الصفات الإنسانية والانفعالية على الطبيعة والكائنات الحية، فتصبح الخيل والسيوف والرماد شواهد ناطقة بالأسى والذهول أمام حجم المأساة، وهو ما يمنح المعمار الصوري في شعره أبعاداً درامية وفنية متماسكة ترتقي بالخطاب الرثائي إلى مستويات بلاغية عالية.

المطلب الثاني: تشكيل اللون وجمالية الصورة الشعرية

يتخذ التشكيل اللوني في ديوان ابن العرندس الحلي أبعاداً دلالية ونفسية تتجاوز النقل البصري الظاهري لتتحول إلى قيم رمزية تُسهم في صياغة البنية الحسية للصورة الشعرية. وظف الشاعر شبكة من الألوان المتقابلة والمترادفة في وصف المعركة وتداعياتها، يأتي في مقدمتها اللون الأحمر بمدلولاته المتعددة التي تجسد خضاب الدماء ودموع التفجع ووهج الهجير، واللون الأسود الذي يعكس ظلمات الظلم وحزن الثكالى وسواد القلوب المفجعة، إلى جانب اللون الأبيض أو الزرقة التي ترمز للصوارم المسلتة والرماح ونقاء نفوس الشهداء. وهذا التقاطع اللون الشديد يخلق تبايناً بصرياً يمنح النص الشعري حسية فائقة تجعل المشهد الرثائي متحركاً أمام عين المتلقي، فالشاعر يعمد إلى تلطيخ عناصر اللوحة الأدبية بألوان الدم والغبراء المرتفعة من تحت أقدام الخيل، مما يمحو الفواصل بين ما هو مادي وما هو نفسي. إن استخدام الألوان عند ابن العرندس يمثل لغة ثانية داخل النص، تُعبر عن تحولات المشهد من بياض العدالة إلى سواد الظلم

واحمرار الفجيعة، مما يسهم في تعميق التجربة الشعورية وترسيخ اللوحة الحسية لواقعة الطف في أذهان المتلقين عبر نسق بصري متكامل.

المبحث الثاني: البنية التركيبية والدلالية للجمل

المطلب الأول: هيمنة الجملة الاسمية ودلالات الثبات والتحسر

يكشف التحليل الأسلوبي للنية التركيبية في ديوان ابن العرندس الحلي عن حضور ملحوظ وهيمنة واضحة للجملة الاسمية على حساب الجملة الفعلية في مقاطع الرثاء والتأبين، وهي هيمنة تحمل أبعاداً دلالية ونفسية وثيقة الصلة بطبيعة الخطاب الرثائي. تقتضي الجملة الفعلية بحسب الأصول النحوية والبلاغية التجدد والحدوث والتغير الزمني، في حين تتسم الجملة الاسمية بالثبات والدوام والاقتران بالحقائق الثابتة والاستمرار. استثمر الشاعر هذه الخصيصة التركيبية لتثبيت حقائق المأساة في ذهن المتلقي، وإضفاء صفة الديمومة على الأسى والحزن، وكأن الفجيعة ليست حدثاً عابراً وقع وانتهى في الزمان، بل هي حالة ثابته مستمرة لا تزول بتعاقب الأيام. تتضافر التراكيب الاسمية في شعره لرسم صفات الإمام الحسين (عليه السلام) الثابتة كالعطاء والعلم والشجاعة، في مقابل تثبيت صفات الظلم والجور في حق أعدائه، مما يجعل الجملة الاسمية وسيلة تعبيرية عن الثبات العقائدي والتحسر الذي لا يحدوه زمن، وكما أن استعمال الابتداء والنواسخ الإسنادية في شعره يسهم في بناء جمل اسمية تتلاحق فيها الأخبار لترسخ انطباعاً كلياً بفداحة الخطب واستمرارية الفاجعة في الضمير الإنساني والوجداني.

المطلب الثاني: التناص الديني والتاريخي واستدعاء النص المأثور

يشكل التناص الديني والتاريخي ملمحاً أسلوبياً بائناً في ديوان ابن العرندس الحلي، يعكس ثقافة الشاعر الفقهية والحديثية الموسوعية وقدرته على استدعاء النص المأثور وتوظيفه في السياق الأدبي. لم يكن التناص لديه مجرد اقتباس آلي أو استشهاد خارجي يضاف للنص، بل كان استدعاءً تفاعلياً يعاد فيه إنتاج النص الغائب (القرآني أو الحديثي أو التاريخي) داخل البنية الشعرية الجديدة لتأكيد المعاني العقائدية والفكرية. يتناص الشاعر بغزارة مع الآيات القرآنية التي تتناول قصص الأنبياء ومصائرهم، كقصة إبراهيم ونوح وموسى وعيسى عليهم السلام، ليعقد مقاربات بين تضحيات الأنبياء ومأساة الإمام الحسين عليه السلام، مؤكداً أن ما جرى في كربلاء هو الامتداد

الطبيعي لصراع الحق والباطل عبر التاريخ، وكما يستحضر الشاعر الأحاديث النبوية الشريفة الواردة في مناقب آل البيت ومظلوميتهم، كحديث الثقلين وحديث السفينة والأخبار التنبؤية بالشهادة، مما يمنح خطابه الرثائي سلطة المرجعية الشرعية وحجية الاستدلال التاريخي. يثري هذا التناص البنية الدلالية للنصوص الشعرية، إذ يحول القصيدة من مرثية ذاتية إلى وثيقة احتجاجية وتاريخية تتصل بالذاكرة العقائدية والأمة الإسلامية.

التحليل التطبيقي للنصوص الشعرية:

لتطبيقات التشكيل الصوري والتلوين البياني والبنية التركيبية والتناص الديني في أدب ابن العرندس الحلي، نستعرض هذا النموذج الأصيل المحقق من ديوانه في رسم المشهد الميداني لكربلاء (١):

وجرت سحائب عبرتي في وجنتي ... كدم الحسين على أراضي كربلا

الصائم القوّام والمتصدّق الـ ... ـطّعّام أفرس من على فرس علا

رجل بصيوان الغمامة جدّه ... المختار في حرّ الهجير تظلّلا

حامت عليه للحمام كواسر ... أمست به سمر الرماح وزرقها

هاتيك بالدم قد صبغْن وهاتهِ ... حمراً وشهْب الخيل دهماً جفّلا

صُبغَت بنقع صبغة لن تنصلا ... حتى أعاد الصبح ليلاً أليلا

وكان لمع الصوارم تحته ... برق تألّق في غمام فانجلى

وأتى الجواد ولا جواد فوقه ... عالي الصهيل بمقلة إنسانها

يبرز التحليل الأسلوبي لهذا النص قدرة الشاعر على التشكيل الصوري والتلوين البياني البديع؛ ففي البيت الأول يؤسس الشاعر لتشبيك بياني يربط فيه بين انسكاب الدمع المتواصل على الوجنتين وبين جريان دم الحسين عليه السلام على أرض كربلاء عبر تشبيه كنائي ومجرد. وتتجلى هيمنة الجملة الاسمية في البيت الثاني: "الصَّائِمُ القَوَّامُ وَالمُتَصَدِّقُ الطَّعَّامُ أَفْرَسُ مَنْ عَلَى فَرَسٍ عَلا"، حيث تتلاحق الصفات الاسمية الثابتة للإمام لتأكيد رسوخ مكانته العبادية والفروسية.

أما البيت الثالث فيحمل تناصاً تاريخياً ودينياً كبيراً باستحضار كرامة النبي محمد صلى الله عليه وآله في "تظليله بصيوان الغمامة"، ليعقد الشاعر مقارنة بين تكريم الجد وبين حر الهجير الذي واجهه السبط الشريف. وفي الأبيات التالية، ينشط التشكيل اللوني والحسي؛ إذ تتداخل ألوان الرماح بين الزرقة والحمرة الناتجين عن صبغهما بدم الشرفاء، وتتحول "شهب الخيل" البيضاء إلى "دهم" سوداء بفعل غبار المعركة (النقع) الذي صبغ الأفق وحول الصبح إلى "ليل أليل". كما يستعير الشاعر تشبيه لمع الصوارم ووميضها بالبرق المتألق في الغمام، لينتهي النص بأنسنة الجواد وعودته باكياً حزيناً، مما يثبت تظافر الصورة والتلوين والبناء التركيبي في صياغة الفجيعة.

وفي نموذج تطبيقي ثانٍ يجسد بنية التركيب والتناص واستعمال الاستفهام البلاغي والتراكيب الاسمية، نستعرض هذا النص المحقق من ديوان ابن العرندس الحلي (٢):

أيُقتل ظمآناً حسين بكربلا ... وفي كل عضو من أنامله بحرُ؟

ووالده الساقي على الحوض في غدٍ ... وفاطمةٌ ماء الفرات لها مهرُ؟

لئن منعوه الماء تروى صوارمٌ ... غداة الوغى من دمائهم وتكرّ

تصول ببطش الحيدريّ كأنها ... أشاوس غابٍ في اللقاء تستعرّ

تخلّف أبطال الفلا في مجازرٍ ... يغصّ بها البرّ الأسيح وتذعرّ

ورزء حسين في الأنام عظيمةٌ ... تضعضع منها كل رضوى ويذبلُ

فتلك بنات المصطفى في كآبةٍ ... يطُفن بوجدٍ بين سلبٍ وسلهبِ

يمسحن بالرّدن أدمع حسرةٍ ... على قمرٍ بالترب قد خرّ شهبُ

يحدد التحليل لهذه الأبيات عن كثافة التناص التاريخي والديني؛ ففي البيت الأول والثاني يبدأ الشاعر باستفهام إنكاري تعجبي يحمل شحنة عقائدية حادة "أَيُقْتَلُ ظَمْآنَاً حُسَيْنٌ بِكَرْبَلا"، مرسخاً المفارقة بين عطش الشهيد وبين كون والده الساقي على الحوض وأمه سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء (عليها السلام) مهرها ماء الفرات. وفي البيت الثالث والرابع يتناص الشاعر مع الفكرة

العقائدية التي تجسد البطولة الشجاعة المنتسبة لبطش الإمام علي بن أبي طالب "بطش الحيدري"، مستعملاً التشبيه البصري للأشاوس بالأسود والمنايا. وتبرز هيمنة الجمل الاسمية والاستئنافية في قوله: "وَرُزْءُ حُسَيْنٍ فِي الأَنَامِ عَظِيمَةٌ"، حيث يضفي على الرزء صفة الثبات والخلود الذي تتضعضع له الأطواد والجبال الراسخات (رضوى ويذبل). وفي الأبيات الأخيرة ترتسم اللوحة البيانية البصرية لحال السبايا والنساء من آل المصطفى، حيث تتقابل كآبتهن مع حركة المسح بالأردية لأدمع الحسرة، وتتجلى استعارة "قمر خر بالترب شهباً" لتعكس تساقط البطل وتفريغ المشهد من النور، مما تؤكد قدرة الشاعر على استثمار التركيب والتناص التاريخي والصورة التشكيلية في تعميق الأثر الرثائي والدلالي.

(١) ابن العرندس الحلي، الشيخ صالح بن عبد الوهاب، ديوان ابن العرندس الحلي، صنعة وتحقيق: د. سعد الحداد، بابل: دار الفرات للثقافة والنشر، ط٣، ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م، ص ٥٢-٥٦.

(٢) ابن العرندس الحلي، الشيخ صالح بن عبد الوهاب، ديوان ابن العرندس الحلي، صنعة وتحقيق: د. سعد الحداد، بابل: دار الفرات للثقافة والنشر، ط٣، ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م، ص ٨٨-٩٢.

(٣) مطلوب، د. أحمد، البلاغة والتطبيق، بغداد: وزارة التعليم العالي والبحث العلمي - جامعة بغداد، ط٢، ١٩٨٢م، ص ١٧٥-١٨٠.

(٤) فضل، د. صلاح، علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، القاهرة: دار الشروق، ط١، ١٩٩٨م، ص ٢١٠-٢١٥.

(٥) زايد، د. علي عشري، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، القاهرة: دار الفكر العربي، ط٤، ٢٠٠٢م، ص ٨٩-٩٤.

(٦) عصفور، د. جابر، مفهوم الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٢م، ص ١٤٥-١٥٠.

(٧) سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٣، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ج١، ص ٢٢-٢٦.

(٨) شبر، السيد جواد، أدب الطف أو شعراء الحسين (ع) من القرن الأول الهجري حتى القرن الرابع عشر، بيروت: دار المرتضى، ط١، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م، ج٤، ص ٢٨٠-٢٨٥.

الفصل الثالث: التشكيل الإيقاعي والعاطفي في قصائد الرثاء

تُمثل الهيكلية الإيقاعية والتجلي العاطفي الركيزة الجوهرية التي تمنح الخطاب الشعري القدرة على النفاذ إلى أعماق النفس الإنسانية، إذ يُعد التوازن الصوتي والنفاذ الوجداني المحركين الأساسيين لاستجابة المتلقي وتفاعله مع المادة الأدبية. وفي أدب الرثاء الحسيني، يتجاوز الإيقاع

دوره النغمي الظاهري ليغدو وعاءً للطاقة ينقل حسرة الفجيعة وينسجم مع عمق المعاناة الروحية، بينما تنصهر العاطفة بالرؤية العقائدية لتقدم رثاءً يجمع بين البكاء الشعوري والالتزام الفكري. ويكرس هذا الفصل لدراسة الجوانب الصوت والعاطفة في ديوان الشيخ صالح بن عبد الوهاب بن العرندس الحلي عبر محورين رئيسين؛ يختص المحور الأول باستكشاف البنية الإيقاعية بشقيها الخارجي والداخلي، من خلال تحليل الاختيارات العروضية والتلوين النغمي في القوافي وحروف الروي، متسلسلاً إلى بحث ظواهر التكرار ورد العجز على الصدر والتوازي الصوتي وتأثيراتها الإيقاعية. أما المحور الثاني فيتولى تقصي البنية العاطفية والتلقي العقائدي، برصد صدق المشاعر ومظاهر التوسل والاستغفار، وصولاً إلى استجلاء البعد العقائدي للقصيدة الحسينية وأثرها في الخيال الوجداني.

المبحث الأول: البنية الإيقاعية (الموسيقى الخارجية والداخلية)

المطلب الأول: بناء الوزن والقافية والروي

تشكل الموسيقى الخارجية الإطار الإيقاعي العام الذي ينضوي فيه النص الشعري، حيث تبرز التفعيلات والقوافي بوصفها وسائل تنظيمية تمهد الطريق لنقل المشاعر الرثائية. أظهر الاستقراء الأسلوبي لديوان ابن العرندس الحلي ميل الشاعر الواضح إلى اعتماد الإيقاعات المركبة والجزلة ذات الأسباب والأوتاد المتسعة، إذ تتيح التشكيلات النغمية الممتدة مساحة عروضية تتسع لتدفق الحزن وتستوعب النفَس الرثائي الصاخب الذي يزاوج بين الندب الحاد والحجاج العقائدي الفخم. ولم تكن هذه الاختيارات العروضية عفوية، بل جاءت ملائمة لطبيعة الفجيعة الحسينية التي تتطلب بناءً جليلاً يحتمل أبعاد المأساة وشجونها. وفيما يخص القافية والروي، انتخب الشاعر أروية تتسم بالأنين والاستطالة النغمية أو الصدح المدوّي، كالميم والراء واللام والدال الممدودة، حيث يسهم جرس هذه الحروف عند الوقف في إحداث صدى حزين يمتد في أذن السمع، مستكملاً بذلك البنية الصوتية التي تجعل القافية مقطعاً تنفيسياً لضغط الشحنة العاطفية المستقرة في صدر الشاعر.

المطلب الثاني: التكرار، رد العجز على الصدر، والتوازي الصوتي

تمثل الموسيقى الداخلية في شعر ابن العرندس الحلي النبض الحيوي الذي يحرك الجسد النصي، حيث استثمر الشاعر ظواهر التكرار اللفظي والتوازي الصوتي وفن رد العجز على الصدر لتخلق ترددات نغمية تتلاحق في ذهن القارئ. لم يكن التكرار لديه مجرد إعادة لغوية، بل كان أداة تأكيد ودعم عاطفي تعكس حالة الذهول والتحسر الناتجة عن جسامة الرزء؛ فتكرار الكلمات والمقاطع الصرفية يخلق دائرة إيقاعية تعود بالمتلقي مراراً إلى المركز الدلالي للمأساة. وتجلت براعة الشاعر في توظيف فن "رد العجز على الصدر" (التصدير)، إذ يعمد إلى تكرار اللفظة التي يبدأ بها البيت أو صدره في نهايته وقافيته، مما ينشئ تماثلاً صوتياً يغلق البيت على نغم محدد ويضاعف من جرس الموسيقى الداخلية، وكما اعتمد الشاعر على التوازي الصوت والتركيب بين الشطرين أو الأبيات المتتالية، عبر تقابل المقاطع الصرفية والنغمية، وهو ما أضفى على قصائده إيقاعاً منسقاً يوازن بين الحزن الفاجع والضبط الموسيقي المحكم، ليتسامى الإيقاع الداخلي ويصبح شريكاً رئيساً في بناء التجربة الجمالية للنص الرثائي.

المبحث الثاني: البنية العاطفية والتلقي العقائدي

المطلب الأول: صدق العاطفة ومظاهر الاستغفار والتوسل

تتألق البنية العاطفية في ديوان ابن العرندس الحلي بالحرارة والصدق الشعوري الذي يبعد النص عن التكلف والسرد التقريري الجاف، إذ ينبع رثاؤه من تجربة وجدانية واعتقادية عميقة ينسجم فيها الحزن الشخصي بالحزن العقائدي العام. ينساب الحزن في شعره صافياً مفعماً بالحرقة واللوعة، حيث يتراجع الصنع الأسلوبي المتكلف لصالح التدفق الشعوري العفوي الذي يصور انكسار النفس أمام هول الواقعة. غير أن هذه العاطفة الرثائية لا تقف عند حدود التفجع المحض، بل ترتقي لتتصل بمظاهر الاستغفار والتوسل وطلب الشفاعة؛ فالشاعر يستثمر رثاء الحسين عليه السلام ليكون وسيلة لغفران الذنوب وطرق أبواب الرحمة الإلهية. تتحول الدمعة في منظومة ابن العرندس الفكرية إلى فعل عبادي وكفارة للسيئات، وتصبح مودة أهل البيت (عليهم السلام) ورثاؤهم ذخيرة ليوم المعاد، مما يجعل البنية العاطفية شاحذه للروح، ممتزجة بالخوف والرجاء، ومرتبطة بطلب الرضوان الإلهي عبر بوابة البكاء والتفجع على السبط الشهيد.

المطلب الثاني: الرؤية العقائدية وأثر النص في الخيال الجمعي (القصيدة الرائية أنموذجاً)

تُجسد الرؤية العقائدية عند ابن العرندس الحلي البعد الرؤيوي الذي ينظم شعره الرثائي، حيث يتجاوز الخطاب النواح المجرد ليعكس منظومة فكرية وكلامية راسخة تتصل بالإمامة والوصية والظليمة التاريخية. يرى الشاعر في واقعة كربلاء محكاً بين الحق والباطل، ورمزاً للاستقامة الهادية في مواجهة الجور. وقد أثمر هذا التلاحم بين الصدق العاطفي واليقين العقائدي عن إنتاج قصائد حُفرت في الذاكرة الأدبية والدينية، وعلى رأسها قصيدته الرائية الشهيرة ("طوايا نظامي")، التي احتلت موقعاً فريداً في الخيال الجمعي والوجداني. نالت هذه الرائية شهرة استثنائية ونُسجت حولها الروايات التراثية التي تنم عن حضورها الروحي العالي؛ حيث يُذكر في المصادر التراثية والمعاجم الترجمة أن هذه القصيدة مفعمة بالإخلاص الصادق إلى حد شاع معه في الخيال الشعبي والعقائدي أنها لا تُقرأ في مجلس إلا وحضره الإمام المهدي المنتظر (عج) تكريماً لصاحبها وتقديراً لصدق ولائه.

التحليل التطبيقي الشامل للنصوص الشعرية:

لتقصي البنية الإيقاعية بشقيها الخارجي والداخلي والتأكد من مظاهر التكرار والتصدير في أدب الشاعر، نستعرض هذا النموذج الأصيل المحقق من رثائيات ابن العرندس الحلي لآل البيت [١]:

سل السيف من أشفار عينيك باترا ... وأجرى دموعي في خدودي جواهرَا

وأضرم في أحشاء قلبي لاهباً ... من الأسى غادرن الضلوع شواغرَا

على رزإ الحسين الذي أورث الهدى ... شجوناً أطالت في القلوب الزوافرَا

قتيل بأرض الطف أضحى وجسمه ... على الترب مجروراً يجافى الحوافرَا

ورأس على رأس السنان يشق بيـ ... ـن أصحابه الأفق المنير البواهرَا

فيا لهف نفسي كيف تسبى نساؤه ... على العجف يرمقن العداة الخوازرَا

تسير بهن الكفر في كل بلدة ... ويطوين بالقفر الفجاج الداثرَا

أيرجى نجاة يوم يبعث خلقنا ... لمرتكب الجرم الذي جاء جائرَا

يكشف التحليل الأسلوبي الموسيقي لهذا النص عن استثمار دقيق للخصائص النغمية الصادرة عن الحركة التفعيلة، مما يمنح التعبير عن الفجيعة بعداً فخماً ورصيناً. وجاءت القافية ورويها (الراء المفتوحة المتلوة بالألف) بمثابة صرخة مدوية تنتهي بالمد في نحو: "باترا، جواهرَا، الزوافرَا"، مما يسهم في صياغة موسيقى خارجية صاخبة تنقل لوعة الصدر ورسائل الأسى. وفي جانب الموسيقى الداخلية، يبرز التكرار اللفظي والصوتي والتقابل الموسيقي في صدر البيت الأول بين التشبيهين الإيقاعيين. كما يظهر فن رد العجز على الصدر والتوازي الصوتي في تقابل المقاطع بين الأبيات المتتالية: "قتيل بأرض الطف" مع "ورأس على رأس السنان"، حيث يُحدث التكرار الروابط النغمية بين صورة الجسد المطروح وصورة الرأس المرفوع على القناة. وفي الأبيات الأخيرة يتألق التوازي الصوتي في وصف حركة السبايا: "تسير بهن ... ويطوين بالقفر"، ليتوج النص باستفهام إنكاري يحمل البعد العقائدي والعاطفي في نفيه النجاة عن قتلة السبط، مما يبين تلاحم الإيقاع الخارجي والداخلي مع البنية الدلالية للنص.

وفي نموذج تطبيقي ثانٍ يجسد البنية العاطفة والتوسل والصدق العقائد في الرائية الشهيرة المعزوة يقيناً لديوان الشاعر، نستعرض هذه الأبيات المحققة من رثائيته الحسينية الخالدة [٢]:

طوايا نظامي في الزمان لها نشر ... يعطرها من طيب ذكركم نشر

قصائد ما خابت لهن مقاصد ... ولا ضاع فيهن التوسل والأجر

أيُقتل ظمآناً حسين بكربلا ... وفي كل عضو من أنامله بحر؟

ووالده الساقي على الحوض في غد ... وفاطمة ماء الفرات لها مهر؟

فمال عن الطرف الجواد أخو الندى ... الجواد قتيلاً حوله يصهل المهر

محيط على علم النبوة صدره ... فطوبى لعلم ضمه ذلك الصدر

له تربة فيها الشفاء وقبة ... يجاب بها الداعي إذا مسه الضر

عسى نفحة من عطفكم وتفضل ... يفك بها من غل أوزاري الأسر

يتجلى في هذا النص التحليل العاطفي والعقائدي البليغ؛ ففي البيت الأول يفتتح الشاعر رائيته بنبرة عاطفية فواحة ترتبط بذكر أهل البيت عبر رد العجز على الصدر والجناس التام في قوله: "نشر ... نشر". وفي البيت الثاني يرسخ البعد التوسلي والعبادي إذ تجيء القصيدة الرثائية لتكون باباً للأجر ووسيلة للتوسل المستجاب. ثم تنداح الحرارة العاطفية والمفارقة العقائدية في الأبيات الثالثة والرابعة عبر استفهام إنكاري يضوع بالأسى على عطش الشهيد الذي هو ابن ساقي الحوض وابن من كان ماء الفرات مهرها. وفي البيت الخامس والسادس نلمس التردد الموسيقي والجناسي التام في تكرار "الجواد" و"الصدر"، لتختتم الأبيات بنبرة توسل واستغفار تبتغي الشفاعة والفكاك من أسر الأوزار والذنوب ببركة مظلومية آل الرسول (عليهم السلام)، مما يبرهن على أن النص يمثل ملتقى حقيقياً بين الإيقاع الموسيقي المحكم والصدق الشعوري واليقين العقائدي الذي جعل من هذا الأدب نسيجاً خافقاً بالخلود.

(١) ابن العرندس الحلي، الشيخ صالح بن عبد الوهاب، ديوان ابن العرندس الحلي، صنعة وتحقيق: د. سعد الحداد، بابل: دار الفرات للثقافة والنشر، ط٣، ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م، ص ٦٢-٦٥.

(٢) ابن العرندس الحلي، الشيخ صالح بن عبد الوهاب، ديوان ابن العرندس الحلي، صنعة وتحقيق: د. سعد الحداد، بابل: دار الفرات للثقافة والنشر، ط٣، ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م، ص ٨٨-٩٢.

(٣) أنيس، د. إبراهيم، الموسيقى الشعرية، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط٥، ١٩٩٩م، ص ١١٢-١١٨.

(٤) الأميني، الشيخ عبد الحسين، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، بيروت: دار الكتاب العربي، ط٤، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، ج٧، ص ١٤-١٩.

(٥) اليعقوبي، الشيخ محمد علي، البابليات، النجف الأشرف: المطبعة الحيدرية، ط١، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م، ج٢، ص ١٤٢-١٤٧.

(٦) شبر، السيد جواد، أدب الطف أو شعراء الحسين (ع) من القرن الأول الهجري حتى القرن الرابع عشر، بيروت: دار المرتضى، ط١، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م، ج٤، ص ٢٨٠-٢٨٦.

(٧) مطلوب، د. أحمد، المعجم البلاغي، بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي، ط١، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص ٩٥-٩٩.

الخاتمة:

تُمثّل دراسة الخطاب الشعري عند الشيخ صالح بن عبد الوهاب بن العرندس الحلي محاولة أكاديمية لرد الاعتبار النقدي والأدبي لأحد أبرز أعلام الأدب الرثائي في القرن التاسع الهجري، وهو عصرٌ كثيراً ما نعتته الدارسات البلاغية بالركود والتصنع. وقد سعى هذا البحث، عبر

فصوله الثلاثة، إلى تفكيك المعمار الفني والبنائي والشعوري لديوان الشاعر، مبرزاً كيف تضافرت الروافد العلمية والفقهية مع الملكة الأدبية الحادّة لإنتاج خطاب رثائي حسيني يتسم بالجزالة، والعمق العقائدي، والانضباط الموسيقي، والبلاغي.

أولاً: تحليل النتائج

توصل البحث إلى مجموعة من النتائج العلمية التي تكشف عن الخصائص الفنية والبنائية لشعره، ويمكن إجمالها في النقاط الآتية:

- التلاؤم بين الفقه والأدب: أثبتت الدراسة أن الخلفية الفقهية والعلمية للشيخ ابن العرندس لم تكن عائقاً أمام تدفقه الشعري، بل شكلت ركيزة متينة أمدّت النص برصانة لغوية وقدرة حجاجيه برهانية، حيث يمتزج الرثاء العاطفي بالاستدلال العقائدي ليتحول النص الشعري من مجرد ندب محلي إلى وثيقة فكرية وتاريخية.
- الوظيفة التعبيرية للمحسنات البديعية: كشفت النتائج أن استعمال الجناس والمقابلة والتصدير لدى الشاعر يتجاوز الزخرفة الشكلية المزوقة؛ ف الجناس الاشتقاقي والتام يُوظف لإحداث ترددات صوتية تعكس اضطراب المعركة ولوعة النفس، بينما تُستغل المقابلة والتضاد لإبراز المفارقات العقائدية والإنسانية الحادة بين مكانة الشهيد السامية وقسوة الأعداء.
- التشكيل اللوني والحسي للمأساة: بينت التحليلات البلاغية اعتناء الشاعر بالتلوين البصري والتشكيل الحسي للمشاهد، حيث يعتمد تقابل الألوان كالأحمر (الدم والخضاب) والأسود (الحزن والظلام) والأبيض والزرق (الصوارم والخيل)، مما يمنح الصورة الرثائية حركة درامية تجعل الواقعة شاخصة في أذهان المتلقين.
- هيمنة التراكيب الاسمية والديمومة الدلالية: أظهر الاستقراء الأسلوبي للأبنية الجملة رجحان الجملة الاسمية على الفعلية في مقاطع التأبين والرثاء، وهو ما يعكس رغبة الشاعر التركيبية في إفادة الثبات والدوام لصفات الإمام الحسين (عليه السلام)، وإسباغ صفة الخلود والاستمرارية على الحزن والأسى في الوجدان الإنساني.

- التناص التفاعلي مع المأثور: أثبت البحث أن الشاعر استثمر النص القرآني والحديثي والتاريخي استثماراً تفاعلياً؛ فلم يكتفِ بالنقل الظاهري، بل أعاد صياغة المفاهيم القرآنية وقصص الأنبياء وأحاديث الفضائل داخل النسيج الشعري لتعميق الحجية الشرعية وإبراز البعد الرسالي لواقعة كربلاء.

- التكامل الموسيقي والعاطفي: خلص التحليل الإيقاعي إلى أن الاختيارات الموسيقية الخارجي منها والداخلي (رد العجز على الصدر والتوازي الصوتي) جاءت متساوقة تماماً مع النبرة العاطفية المحترقة، حيث أتاحت القوافي الممدودة وحروف الروي كالميم والراء واللام تفريغ الشحنات الوجدانية المتسعة.

- الخلود النصي والأثر العقائدي: كشفت الدراسة أن صدق العاطفة والتوسل والاستغفار في ديوان ابن العرندس، ولا سيما في رائيته الشهيرة، منح أدبه مكاناً فريداً في المخيل الجمعي والذاكرة التراثية، لتتجاوز القصيدة حدودها الأدبية وتغدو طقساً وجدانياً حياً عبر القرون.

ثانياً: التوصيات

بناءً على نتائج البحث، يقدم الباحث التوصيات العلمية الآتية:

- العناية بتحقيق المخطوطات: يُوصي الباحث بضرورة تتبع ما تبقى من نسخ خطية لديوان الشيخ ابن العرندس الحلي ومؤلفاته الفقهية مثل كتاب (كشف اللآلي)، وإخضاعها للتحقيق الأكاديمي العلمي المقارن لتخليصها من أي إقحام أو تصحيف.

- إعادة قراءة أدب القرون المتأخرة: أدعو الباحثين والدارسين في المنهجيات الأدبية والنقدية إلى إعادة تقييم أدب القرنين الثامن والتاسع الهجريين في العراق، والابتعاد عن الأحكام النقدية المسبقة التي تصم هذه العصور بالضعف المطلق، واستكشاف ملامح الأصالة في النتاج الفكري للشعراء الفقهاء.

- توسيع الدراسات الأسلوبية والبلاغية: يُوصى بإجراء دراسات أسلوبية مقارنة تجمع بين شعراء مدرسة الحلة الأدبية (كابن العرندس، وابن الفتال، والشيخ الخليعي) لرصد الملامح التشكيلية والموسيقية المشتركة التي شكلت الهوية البلاغية لهذه البيئة العلمية.

- ❖ دراسة الأدب العقائدي من منظور السيميائيات: تشجيع الباحثين على تناول الرثاء الحسيني في ديوان ابن العرندس وشعراء عصره وفق المناهج النقدية الحديثة، كالسيميائيات والتحليل التداولي والنسقي، لبرهنة قدرة النص التراثي على الانفتاح أمام آليات النقد المعاصر.
- ❖ إدراج شعر ابن العرندس في المناهج الأكاديمية: يُوصي الباحث المؤسسات التعليمية والجامعية بالاهتمام بنصوص ابن العرندس الحلي البلاغية والبديعية، وتضمينها في المقررات الدراسية الخاصة بالبلاغة والأدب الإسلامي والتراثي، بوصفها نماذج تطبيقية غنية بالجناس والمقابلة والتناص.
- ❖ عقد ندوات ومؤتمرات علمية: الدعوة إلى تنظيم مؤتمرات علمية وندوات أدبية تتناول مدرسة الحلة الفكرية والأدبية، وتسليط الضوء على الأبعاد الحضارية والاجتماعية التي ساهمت في خلود الشعر الولائي والرثائي لعلماء هذه المدينة المعطاءة.

المصادر والمراجع:

- ابن العرندس الحلي، الشيخ صالح بن عبد الوهاب، ديوان ابن العرندس الحلي، صنعة وتحقيق: د. سعد الحداد، بابل: دار الفرات للثقافة والنشر، ط٣، ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م.
- الأميني، الشيخ عبد الحسين، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، بيروت: دار الكتاب العربي، ط٤، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.
- أنيس، د. إبراهيم، الموسيقى الشعرية، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط٥، ١٩٩٩م.
- حرز الدين، الشيخ محمد، مراقد المعارف، تحقيق: عبد الرزاق حرز الدين، قم: منشورات دليل ما، ط١، ١٤٢٨هـ.
- زايد، د. علي عشري، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، القاهرة: دار الفكر العربي، ط٤، ٢٠٠٢م.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٣، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

- شبر، السيد جواد، أدب الطف أو شعراء الحسين (ع) من القرن الأول الهجري حتى القرن الرابع عشر، بيروت: دار المرتضى، ط١، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م.
- الصدر، السيد حسن، تكملة أمل الآمل، تحقيق: عبد الحميد القاضي، قم: منشورات مكتبة آية الله المرعشي النجفي، ط١، ١٤٠٦هـ.
- عصفور، د. جابر، مفهوم الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٢م.
- فضل، د. صلاح، علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، القاهرة: دار الشروق، ط١، ١٩٩٨م.
- مطلوب، د. أحمد، البلاغة والتطبيق، بغداد: وزارة التعليم العالي والبحث العلمي - جامعة بغداد، ط٢، ١٩٨٢م.
- مطلوب، د. أحمد، المعجم البلاغي، بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي، ط١، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- اليعقوبي، الشيخ محمد علي، البابليات، النجف الأشرف: المطبعة الحيدرية، ط١، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م.